

## أرض محرقة

□ يسري الأمير

موتُ غزّة أطفالٌ أشلاء، وشهداءٌ أحياءٌ يتلون الشهادةَ آخرَ قولٍ قبل الانكفاء، وحكاياتٌ بطوليةٌ مليئةٌ بالرعب والخوف، وشعورٌ عارمٌ بالوحدة القاتلة وانسداد الأفق حول المدد الآتي. أما موثنا فترفٌ ورفاهيةٌ مصطنعة، وتمسكٌ بقيم لا نفقها، وانبطاحٌ لامتناهٍ، وتفاؤليةٌ عجيبةٌ تشبه النبتة البلاستيكية في أرضٍ خصبة.

موتُ غزّة واحدٌ، قتلٌ جماعيٌّ من الإنسان الأبيض لفقراء الأرض الأكثر إزعاجاً برفضهم الموت، قتلٌ مكلفٌ يرفع من قيمة الإنسان: لكل طفل صاروخٌ ثمّنه عشرات آلاف الدولارات، لكل امرأةٍ تكتيكٌ تكنولوجيٌّ كلف الملايين، لكل مقاتلٍ تحركٌ كتيبة. أما موثنا فمتعدّدٌ الوجوه، يجمعه إبقاؤنا أحياءً لتناول وجبةٍ دسمةٍ عند الماكدونالدز، تُتبعه بكوبٍ قهوةٍ لا يشبه قهوتنا، وحبذا لو كان من الستاربكس، حيث نجلس كما نتخيّل الإنسان الأبيض يجلس، ندخنُ خلسةً، وبتناقضٍ في عناوين موثنا كأسباب الحياة والفعل: الحكام، التخلف، الذرائعية، الانتصار المكنون.

### الحكام

«واسحبّ ظللك عن بلاطِ الحاكم العربي/حتى لا يعلّقها وساما» (محمود درويش) كم مرّة سنجرّب الـ «حكام» العرب؟ كم مرّة سننظر إليهم على أنهم الأمل والمرتجى؟ وإلامَ نبقى نجتمع الدلائل والبراهين على أنهم شركاء في المجزرة؟ ومن أين أتت كلمة «حكام» في الأساس؟ من يحكم منهم؟ ومن يحكمون؟ حاكمٌ مصر لم يفتح معبراً رفح، فقامت القيامةُ ضده. لكنه كان قد أغلق المعبر منذ سنتين وارتضى أن «يتعاون» مع الإسرائيليين، فلماذا صمّتنا وقتنا؟ الرجل، على ما ذكرت الصحف، أحضر الشركات الهندسية الأميركية لتبحث عن أنفاق الحياة التي حفرها أبناء غزّة. من الصعب أن تُقنع طفلاً بأنّ غزّة محاصرة من دولة واحدة وهي (أي غزّة) على حدود دولتين. لكن هل يُقدّر حاكمٌ مصر على أن يتخذ قراراً يفتح المعبر؟ أفاجاناً بشيء؟ أكان عاقلٌ يتصور أنّ حسني مبارك سيوقظ التمرد في أبي الهول، وسيخطب على الطاولة بيده الغليظة ويقول: «لا أقبل القتل في غزّة! لا أقبل الجوع! سأفتح أرضي ملاذاً لمن يريد الهرب بأطفاله خوفاً عليهم!» ماذا انتظرنا، حقيقةً، منه؟ أسيكون أكثر رافةً بالغرّابين منه بشعبه الذي حوله إلى واحدٍ من أفقر شعوب العالم، يشحذ رغيف الخبز في الأرض التي علّمت العالم

ليست غزّة التي تحترق هي «الأرض المحروقة»، بل الفكر الذي يسيطر على الأرض بفعل التصاقه ببنى السلطة المنشغلة بأسئلة البقاء المجاني.

ليست غزّة الأرض المحروقة. فبيوتٌ صفيحها، التي اشتعلت مع الطائرات المهوّمة في سماءٍ ضيقة، ستزهر من جديد، وستنتقل الحكايات الجديدة ممّن بقي حياً: من الأطفال المتروكين حول أمهاتهم القتيلات، من رعب صوت الطائرات والصواريخ التي حُفرت في ذاكرة المولودين. والأبناء، الذين ضلّ الموت طريقه إليهم، سيخبرون أبناءهم في ما بعد عن صدر الأب الذي حاول أن يكون ملجأً من الصواريخ، وعن ترانيم الأم المهددة ليناموا متغلبين على زعيق النفاثات التي حققت الـ «إنجازات» العسكرية المزعومة.

ليست غزّة من يحتاج إلينا: فغزّة تقاوت عن نفسها، وتعلّمتنا أنّ حكايات المدن التي أحرقت نفسها وأبت الخضوع لم تكن أساطير وهمية، وأنّ المشاهد السينمائية أقلّ من الواقع، وأنّ الحياة تبادلٌ أدوارٍ مع الموت.

لغزّة موثها؛ ولنا، نحن الملايين المنتشرة من المحيط إلى الخليج، موثنا الخاص. موت غزّة سيّجلب الحياة؛ وموثنا قتل غزّة، وجنين، والقدس، وعكا، وحيفا، ويافا، وبغداد، وبيروت، والخرطوم، والصومال، وقبلها تونس، وطرابلس الغرب، وصنعاء، وعمّان. موت غزّة يطهر؛ وموثنا مُعدّ متقيح.



هل «التخلف» أن يثور أهل غزة على قتلهم بالفرق بسبب الحصار ويؤثروا المقاومة؟

وكانت فكرة الحملة الشعبية لامتنصاص هول المناظر مبتكرة وإبداعية إلى درجة أن تبناها أمير البحرين (الذي ضاقت به الإمارة فنصّب نفسه ملكاً، في حين بقيت زوجته أميرة)، فقاد حملة مثلها في بلاده. وبالحسن نفسه قاد شيوخ الإمارات الميمونون حملات في زواريب «مولاتهم» التي يفخرون بها.

أين الحكام العرب؟ إنهم متطوعون الآن في الهلال الأحمر لضيق ذات اليد: فلا نفضٌ عندهم، ولا أموال، ولا جيوشٌ وأسلحةٌ بمئات مليارات الدولارات تهترئ في الصحراء لقلّة الاستعمال. الحكام العرب لا يملكون إلاّ الحسّ الـ «إنساني» المرهف الذي دفع بالملك الهاشمي إلى التبرّع بدمه الملكي، أباً عن جدّ، لغزة. فكفى عويلاً ويحناً عنهم! تلك هي أطول لعبة اختباء في تاريخ الشعوب. لكنّ الغريب هو بديهية السؤال: فاستعمال «أل» التعريف قبل النطق بـ «حكام» يدلّ على البديهية في منطق الناس. الحاكم حاكم، لا نعرف لماذا وكيف، يُعمل حاكماً، ويموت حاكماً، وينجب حكاماً، أبناؤه هم الوحيدون المهيوّن ليكونوا حكاماً، وأما الناس - رجالاً ونساءً - فعقيمون وعقيمت لا ينفعون. ليس سهلاً أن تكون الحاكم والقائد والمهمّ والمفدى والحكيم والرياضي الأول وراعي العلوم والمواطن الأول وزوج السيّدة الأولى.... وبعد كلّ هذه المهام لا غصاصة إن لم يسمع الحاكم استغاثات وأنياباً.

الحكام مؤنثا الأول، ليس في وجودهم على العروش وفي القصور، بل في قبولنا هذا الوجود والاستكانة إليه. وبعد كلّ مصيبة فجاجاً بموقفهم، فيزداد الفكر تبليداً. لم يستفد كثيرون من رؤية ديكتاتور بغداد الرهيب يسقط ولا يدافع عن حكمه، يُقتل ابنه ثم يرتضي أن يمسك به في جحر جردن دون مقاومة، فيعلّق على المشنقة بيد الغزاة وهو ما زال يحلم بدور في خدمتهم كي يعود حاكماً من جديد. لم نقدّر مدى هشاشتهم، ومدى حصدهم ما زرعه من بديهيات وجودهم في وعي الناس.

الزراعة، ويستعطي نقطة الماء وهو بجانب النيل، فيما مشاريع المياه تذهب إلى ملاعب الغولف التي تفرّخ في بلاد الضامنين؟

أين الحكام العرب؟ سؤالٌ طرحته الأمهات الثكالي، سؤالُ العاجزين المحاصرين، فردّناه نحن الذين نعتبر أنفسنا خارج الحصار. أين الحكام العرب؟ غريب السؤال! أفهمه من امرأة لم تعد لديها حيلة لحماية ابنها المرعوب من هدير الطائرات، لكنّه قمة العبت عندما نظرحه نحن. لقد شمّر أثريائهم عن ساعد الجدّ، وانهمكوا في أعمال خيرية. والملك السعودي - الذي قدّم، بشحطة قلم، مليارات الدولارات تعويضاً من تفجيرات الحادي عشر من أيلول - قاد حملة تبرعات لأهل غزة في المملكة، دون أن ينسى أن يُقلّ علينا «علماء» على الشاشات يعظوننا بتفوق الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس... وبأشواط. لكنّ العلماء أنفسهم كانوا قد داروا في السابق على الراغبين في الجهاد، بيتاً بيتاً، فآقنوعهم بأولوية الجهاد بالنفس، ثم أرسلوهم أكواماً إلى.. أفغانستان؛ فلرّيمّا الطريق أقصر إلى هناك مع رحلات السي. أي. إي.

أين الحكام العرب؟ إنهم يمارسون البكاء أمام كوندوليسا رايس، ويكشرون عن أنيابهم أمام المتظاهرين في الطرق، ونحن ما زلنا نتوهمهم حكماً.

أيها السيدة التي تحتضن طفلها القليل وتسال «أين هم؟» إنهم يبحثون عنك ليُرشدوا الطائرات إلى كوخك التنكي، الذي يقض بسموده أسس قصورهم.

## التخلف

«هذه آياتنا فاقراً/باسم الفدائي الذي حلقنا/من جزمة أفقا» (محمود درويش)

«التخلف» ظاهرتنا الجديدة، ووصفتنا للخلاص من هم الموقف والفعل. نحن نعاني التخلف، ونحن غير قادرين على القيام بشيء إزاء التقدم المذهل الذي نراه عند الرجل الأبيض، وعلينا أن ننتهي من «تخلفنا» بتقليده. فإذا ما نلنا شرف التقليد، ومدحنا صحيفة بلدية مغمورة في بلاد الرجل الأبيض، طاش صوابنا فرحاً وسروراً، وحملنا المقال شهادة نعتز بها أكثر من اعتزازنا بشهادة الدكتوراه الفخرية التي نلناها إثر تبرع سخي قدمناه إلى جامعة ثرية، أو اشتريناها من فقير مصري رمّت به الأقدار في طريقنا فأنجز بحثنا.

عندما تنهك في قراءة تعليقات القراء العرب على مقالات الصحف والمواقع الإلكترونية، تذهلك شدة الحساسية التي نبديها من فكرة التخلف. فثمة مقالات وتعليقات كثيرة تصف تصرفات معينة بـ «التخلف»، ولذلك لم تجد غضاضة في وصم رمي الحذاء على رأس الرئيس الأميركي بالتخلف، بل كالت المديح لديمقراطية المحتل التي سمحت للصحافي العراقي برمي مداسه، وانتقدت من أثلج الحذاء صدره.

لكننا بالطبع لم نعد إلى مفهوم التخلف، ولم نشرح معناه. صار عكس التخلف كياسة في التعاطي، وروانة بكلمات أجنبية، وفنجان قهوة عند ستارباكس. ولم يربط هؤلاء المحللون التخلف بالأمية المتعمدة لتأييد سيطرة الحاكم، ولا باهتراء مراكز التعليم التي تنتج حاملي شهادات عاطلين عن العمل، ولا بانهيار البنى الاقتصادية المدروس، ولا بنمط الإنتاج الريعي والاستهلاكي. ليست خسارة مئات المليارات من الدولارات في البورصات المتضخمة دليلاً على التخلف، وليس تخلفاً انعدام فرص العمل والمشاريع الصغيرة

للطبقة الوسطى، ولا الفساد المستشري بين مكاتبنا الوزارية لتسيير أمور تحالف التجار والضباط وأمرأ السلطة! كل ذلك ليس تخلفاً، ولا يقتضي التوقف عنده! أما أن يثور أهل غزة على قتلهم بالفرق بسبب الحصار، ويؤثروا المقاومة والموت الجماعي على ترك رقابهم في أيدي الجلادين، فهو رمزاً لتخلفنا. أما أن نقارع الرجل الغربي، ونخطف جنوده لنحرر أسرانا، فمغامرة متخلفة. أما أن ندعو إلى تكامل عربي، فلغة خشبية متخلفة. أما أن نقول إن حاكم مصر شريك في حصار الغزاويين، فافتئات وتجن وتخلف فكري بالطبع. كما أن المقاومين «متخلفون» لأنهم لم يبيكوا أمام الكاميرات، ولم يقبلوا ممثلة الرجل الأبيض السمر، ولم يقبلوا ما قدم لهم من فتات الحياة بل طالبوا بحقهم الكامل فيها. وإن رفضنا أن نبقى لاجئين وفقراء وضعفاء بحاجة إلى عطف الرجل الأبيض، وإن لم نحب الحياة على الطريقة الأميركية أو الأوروبية، وإن قاومنا بلحمننا وأجساد أطفالنا، فسنكون متخلفين نستحق أن نرجمنا صحف المحبة البترولية ومشتقاتها بشتى النعوت.

الخوف من أن نرُمى بالتخلف، جراء فكرة رسمناها عن الرجل الأبيض المتطور، يتغلغل في رؤوسنا. فإن حميت رؤوسنا لمأى تقطيع أجساد أطفالنا في غزة عالجنها بالمزيد من القهوة، وبالتفرنج المضحك، وبالهدوء المصطنع، وحمدنا الله لأننا لسنا خشبيين متخلفين.

## الذرائعية

«هم يسرقون الآن جلدك/فاحذر ملامحهم وغمدك/كم كنت وحدك يا ابن أمي/يا ابن أكثر من أب/كم كنت وحدك!» (محمود درويش)

الذرائعية وصفة بعضنا لرؤية العالم وفهمه وتحليله، وقد برزنا المرحوم ديكارت في الميكانيكية الفكرية التي نرى بها العالم. والذرائعية تجعلنا مواطنين سعداء، ومحللين مفوهين أمام شاشات التلفزيون وفي عواميد الصحف. هكذا يقول بعضنا إن إسرائيل هاجمت غزة لأن حماس افترت عليها بالصواريخ. غريبة هوية حماس: كلما وجد اثنان من أعضائها وقت فراغ وشعرا بالملل، أطلقا صاروخاً على البلدات والمستعمرات الـ «إسرائيلية»، فضاقت صدر إسرائيل بتهديد شعبها الآمن، وضاقت وعي حماس بقوة إسرائيل، فكان لا بد من أن تندلع النار بينهما! كذا تقرأ وتسمع. أما بالنسبة إلى مئات المدنيين الذين دُبحوا، فالأمر بسيط وواضح: لما كان المقاومون الفلسطينيون يطلقون النار من بين البيوت، فقد جاء الرد الإسرائيلي على البيوت!

لم يجهد الإسرائيليون، كما جهد الكثير من الكتاب العرب، في تبرير هجوم دولتهم على قطاع من أفقر المناطق في العالم، وأكثرها كثافة سكانية. كذلك لم يسرفوا في تقديم تبريرات للقتل من قبيل استخدام تعابير: «الصواريخ العبيثة»، و«كلفة المقاومة»، و«العجز عن مواجهة القوة الإسرائيلية»، و«موازين القوة». بالطبع هذه الذرائعية لا تقدم ذريعة مقنعة لسبب إطلاق الصواريخ المقاومة، ولا لتصنيعها في الأساس. ولم يربط الإسرائيليون بين إمكان تصنيع الصواريخ وتقلص العمليات الاستشهادية، بعد أن صار بالإمكان استخدام مقذوفات تحمل الانفجار عوضاً عن استخدام الإنسان كصاروخ. وفي عام ٢٠٠٦ صلبت المقاومة اللبنانية بالذرائعية عينها، وتساءل البعض: أمن أجل حفنة من المعتقلين اللبنانيين في السجون الإسرائيلية يُخطف جنديان وتقع الحرب؟ لم يسأل أحد من هؤلاء الذرائعيين يوماً عن سبب خوض إسرائيل الحرب من أجل جنديين، ولا عن مقتل ١٦٠ إسرائيلياً، جلهم من الجنود، لتحرير جنديين، ربما لأننا نؤمن في قرارة نفوسنا بأننا - نحن «التخلفين» - لا نعطي قيمة لأسرانا، الأحياء والأموات: بل إننا بالنسبة إلى



أيهما أقسى وقعاً عليك أيّتها الأمّ الغزّاوية: الصواريخُ التي قتلت ابنك الشهيد، أم القولُ إنّه يخدم مشروعاً نووياً إيرانياً؟!

الذرائعيّين، مدّعي المنطق، نعيش على دماء قتلتنا، هويتنا أن يُقتل أطفالنا وتُدْمَر بيوتنا، ولا سؤالَ عمّن يقتل أطفالنا أو يدمّر البيوت. بهذه الذريعة تُحمّل حركة حماس مسؤوليّة الهوس الإسرائيليّ بالألعاب الإلكترونيّة الحقيقيّة فوق رؤوسنا. وبهذه الحجّة تُحمّل فصائل المقاومة مسؤوليّة انعدام الضمير العالميّ إزاء مشاهد قتلنا في الطرقات، وإهانة أجساد موتانا التي لم تستطع أن تقارع الف ١٦ وصواريخها. وبهذا تمتنع الوجوه وهي ترى الجزرة ضدّ شعب يصنّع صواريخه من مواسير المياه، فيما تتكدّس أسلحة اشتريناها بمئات مليارات الدولارات.

نلوم الفلسطينيّ لتمرّده على القوة الصلابة وهو لا يملك ما يحمي أهله، ولا ندكر سبب وجود الطائرات بجانب الإبل في حظائرنا. نلوم المقاتل الذي يُقتل أهله، ونحارب تهريب الأسلحة إليه، ثمّ يتشدّق بعض الكُتّاب ومحرّري نشرات التلفزيون بتعداد موازين القوى. يا لموازين القوى! ماذا لو انهك النبيّ محمّد في دراسة موازين القوى؟ أكان سيقارع أعظم إمبراطوريتين يومها ببضع قبائل؟

### الانتصار المكنون

«يا سيّد الكينونة المتحوّلة/يا سيّد الجمره/يا سيّد الشعلة/ما أوسع الثورة/ما أضيق الرحلة/ما أكبر الفكرة/ما أصغر الدولة!» (محمود درويش)

تغيّر الصورة في شرقنا منذ فترة. فلم يعد مستقبّلنا هو ما يُكتب في دهاليز وزارات خارجيّة الرجل الأبيض، بل صارت أزقة مارون الراس ومخيمات الفقراء

في غزوة هي التي تحطّ بصمود رجالها ونسائها مسوّدات المستقبل الآتي. تتغيّر الدنيا: فنرى الجيش الإسرائيلي يتخلّى عن رحلات الكشافة التأديبية لاحتلال المدن وتدمير الجيوش، وينعكف إلى قرى لبنان القريبة محاولاً إخضاعها من دون نتيجة؛ ثم يستدير إلى الضفة وغزة، أي ما كان يعتبره جزءاً من أرضه، ليقتل الناس من دون أن يستطيع كسر إرادة المواجهة لديهم. ولئن كنّا نقف مع المتسفسائلين بأن الزمن الإسرائيلي بدأ الانحدار المحتوم بنيويّاً، إلا أنّ نبرة الانتصار المرفوعة، التي يُظهرها عددٌ كبيرٌ من الكتّاب والمعلّقين، لا توحى بالكثير من الطمأنينة.

صمودنا أسطوريّ؟ صحيح. الجيش الإسرائيلي فقد هائلته؟ صحيح. التحام المقاومة بالناس وانبثاقها منهم بعد تجارب جيوش الأنظمة الفاشلة؟ صحيح، وأكثر من صحيح. لكنّ الحديث عن انتصار، والتبشير به، فقط لأننا استطعنا تقديم آلاف الشهداء من دون أن نتراجع؟ هنا لا بدّ من الوقوف قليلاً.

الادعاء بالنصر المظفر الآن فيه الكثير من البداهة السطحة. وهذا لا يقلل من قيمة صمود مقاتلينا وشعبنا، ولا من أهمية الإنجازات العسكرية التي تُبطل الكثير من عوامل تفوق الجيش الإسرائيلي وتدفع بقادته إلى طلب أهلينا في بيوتهم تعويضاً من إخفاقهم في النيل من مقاتلينا. لقد حطمت المقاومة الفلسطينية واللبنانية أسطورة زُرعت في أذهان آبائنا، وأورثوها إيانا، وهي أنّ الوقوف في وجه القوة العسكرية الإسرائيلية غير ممكن، وكأنّ أحدًا من الحكّام العرب منذ عقود حاول ذلك بصدق وتصميم ووعي وحداعة. الإسرائيليون غنموا في حروبهم مع جيوشنا فكرة الرعب منهم، واستفادوا من فساد الأنظمة، وتردّدها بين إرادة المقاومة وإغراء المفاوضات. ثم بدأ العمل الفلسطيني المقاوم، فكانت بذرة الإرادة في كسر احتكار القوة. وتلته المقاومة اللبنانية التي أظهرت لكلّ المراهنين على العجز أنّ القوة تُفرض واقعها، وأنّ الإسرائيلي يمكن أن يتراجع عندما تُظهر الإرادة وتُعدّ العدة وتستعدّ لدفع ثمن بناء مستقبلنا. أمّا الانتفاضة الفلسطينية الأولى، ثمّ الثانية التي وأدتها الفوضى في العمل المسلح، وأزاحت عنها الكثير من الفعل الشعبي المباشر،

فقد نقلتا المعركة إلى أرض حرام بالنسبة إلى الإسرائيليين الذين باتوا مجبرين على التنازل عن بعض ما كانوا يعتبرونه من الحرمات.

وها غزوة الآن تكتب فصلاً جديداً من فصول انهيار لامنطق القوة العسكرية القابع فوق رقاب الملايين من البشر. وهكذا نرى الجيش «الذي لا يُقهر» يعتبر المجزرة بسلاح الطيران إنجازاً نوعياً، ويعتبر تدمير البيوت فوق رؤوس أصحابها تطوّراً في بنية العمل العسكري. وأما جنوده فمدعورون على أبواب المدن والمخيمات، لا يبارحون دباباتهم، ويشكون من أنّ المحاصرين يحاولون بإصرار أن يخطفوهم. ويتذكّر الجنود الإسرائيليون حكايات آبائهم عن مئات الجنود العرب الرافعين أعلاماً بيضاء، والمستسلمين بمجرد سماعهم صرير جنائز الدبابات الإسرائيلية. ويسأل الجنود الإسرائيليون: أين ذلك العربي، بلفاحه الأبيض المرفوع فوق اليدين المرفوعتين، في أرض محاصرة من كلّ الاتجاهات؟ بل ربّما باتوا يشكّون في روايات آبائهم.

إنّ ذلك كلّهُ - إحباط الفعل الإسرائيلي، ومن خلفه الرجل الأبيض، عن التفرد بصناعة مستقبلنا - لهو بدايات النصر. لكنّه ما زال في دائرة ردّ الفعل. فنحن ما زلنا نخطط للدفاع عن أنفسنا، ولردع العدوان، ولنعه من تحقيق أهدافه؛ وهذا تطوّر هائل في بنية وعينا. لكنّ الانتصار يتطلّب القيام بالفعل، والتخطيط للخطوات اللازمة، وتقديم برنامج عمل للناس كي تشارك في صنع مستقبلها.

لقد حرّرت المقاومة لبنان من الاحتلال الإسرائيلي لمعظم أراضيها، لكنّها عجزت عن تقديم خطاب جامع يستثمر إنجاز التحرير، وهذا ما مكّن الكثيرين من محاصرتها ومضايقتها. إنّما يبقى السؤال: ماذا بعد التحرير؟ ما البرنامج السياسي والاقتصادي والاجتماعي؟ ما النظام الذي سيسود؟ كذلك الأمر في فلسطين: هناك تقوم المقاومة على عدّة فصائل، معظمها الآن ديني، فما هو برنامجها؟ وما هي خطتها؟ وكيف يشارك الناس فيها ويسعون إلى تنفيذها وتطويرها؟ لو قدّمنا تصوّراً افتراضياً بأنّ حماس سيطرت على الضفة وغزة وفرضت اعتراف العالم بدولة فلسطينية، فالسؤال هو عن اليوم التالي. النموذج الذي فرضته حماس على المستوى الاجتماعي في غزة ليس مشجعاً، فهل هذا هو ما سيسود؟ ماذا نفعل بالفلسطينيين غير المسلمين؟ وبغير الحمساويين؟ ما خطة حماس الاجتماعية التربوية الاقتصادية؟

أبدو الأسئلة السابقة باهتة تحت وقع المجزرة؟ ليس هذا هو المقصود؛ ففي هذه اللحظات بوركتم قدم كلّ مقاتل في أرض غزة. لكنّ السؤال أقدم من هذين الأسبوعين، وأقدم من إنجاز حرب تموز ٢٠٠٦. السؤال عن ربط التحرير بالتحرّر، عن الحدّات المطلوبة لنفض تخلف بنية المجتمع العربي بمؤسّساته الحكومية والقضائية والاقتصادية والتربوية. الحدّات الأهمّ التي أظهرتها قوة المقاومة حتّى الآن اقتصرت على الأداء العسكري (أو ما يخدمه ويدور في فلكه إعلامياً وتربوياً وتعبوياً وخدمات اجتماعية)، وقد أرسى نظريتها حزب الله، ونقلها إلى المقاومة الفلسطينية: فمن وسائل بدائية وقلة موارد السلاح، استطاع الفكر الحدائوي العسكري أن يبتدع طرائق واستراتيجيات إبداعية تقلّل من الهوة التسلّحية بين هذه القوى والتفوق التسلّحي الإسرائيلي. غير أنّ هذا الإبداع الحدائوي لم ينتقل إلى بنى المقاومة الأخرى، على صعيد الخطاب السياسي والبرنامج الاجتماعي غير الموجه إلى تعزيز العسكرية والتعبئة. فأين برنامج حزب الله، أو حماس، أو الجهاد، المُعلن في أدبيّاته لا ممارساته غير مقاومة الاحتلال وتحرير الأرض؟

غياب هذه الرؤية يبقى هذه القوى في معرض ردّ الفعل. وهي تقوم بهذه المهمة على أكمل وجه، مصحوبة بتأييد طيف كبير من شارعها المحلي والشارع العربي، نتيجة لسنوات طويلة من القهر والذلّ والعريضة الإسرائيلية وغياب النظام العربي عن





يثورون لمذبحة غزة اليوم، كما ثاروا لجنين وبيروت، ثم يعودون وأيديهم خالية الوفاض من هدفٍ جامعٍ محدّد.

يجتروحون المعجزات في مقاومتهم، فإننا ما زلنا بعيدين عن التبشير بالنصر. جلّ ما عندنا أنّ معدنّ الناس الصحيح يَظهر في مقاوماتٍ أسطورية، وفي حكايات بطولةٍ تَفخر الشعوبُ بروايتها.

### ملاحظة ختامية

بلغ عددُ شهداءِ غزّة المعلن، حتّى وقت كتابة هذا المقال، أكثر من ١١٠٠ شهيد، من دون معرفة عدد جميع من بقي تحت الأنقاض. وفي هذا الوقت، أقرّ الكونغرس الأميركي إعطاء شحنات أسلحة لإسرائيل. وما زال الموقف الرسمي الأوروبي على غيبوبته حيال المجزرة. وتحاول إسرائيل فرض قرار مجلس الأمن بالقوة. ويتابع الرجل الأبيض تقارير عن معاملة... الفيلة في تايلاند، وفي وقت فراغه يسأل ببلاهة: «لماذا يكرهوننا؟». وغزّة ما زالت تقاتل، ولا تنتظر قمماً عربيةً تنتظر بدورها أنباء سقوط غزّة.

إنهم لا يعرفون أنّ غزّة لا تسقط، وإن دخلها المحتلّ. فمن يقاتل بلحمه لا يسقط. الساقط الساقط هو من دأب على ترك مدنا وقرانا تقاتل وحدها!

بيروت

دائرة الفعل (غير التنكيل بالشعوب). من هنا يصير الحديث البديهي عند الكثير من الكتاب والمعلّقين عن الانتصار المكنون ضرباً من الصورة القاتمة التي تُحبط الناس في كلّ الوطن العربيّ عن الحراك خارج الحدود الزمنية للمجزرة. فحصارُ غزّة لم يبدأ اليوم، ومأساة فلسطين عمرها أكثر من ستين عاماً، وتواطؤ الأنظمة جزءٌ من بنيتها، والقهر والظلم وقمع الناس في الطرق كانت دأبها ودينها ووسيلتها للبقاء. وغيابُ الخطاب السياسي والبرنامج الجامع يبقي الفقراء والمقهورين تحت طائلة ردّ الفعل لا أكثر: يثورون لمذبحة غزّة اليوم، كما ثاروا لجنين وبيروت، وربما غداً سيثورون لمذبحة جديدة، ومن ثمّ يعودون إلى قهرهم اليومي، ولسانُ حالهم يكفر بالرؤساء، وأيديهم خالية الوفاض من هدفٍ جامعٍ محدّد.

هل يمكن تحرير الأرض، وهؤلاء القابضون على أعناقنا ما زالوا في عروشهم نائمين؟ هل يمكن جمعُ الناس في برنامج ذي نفس طائفيٍ محدّد؟ هل تمكّن دعوة الناس إلى تأسيس نظام قمعيّ جديد يستبدلون به نظاماً قمعيّاً متواطئاً مع الاحتلال؟ ما دامت هذه الأسئلة بلا جواب ممن

### يسري الأمير

كاتب نيبالي وسدوب الأواب في بيروت.